ولا تلبسوا الحق بالباطل

قال تعالى : { ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون } البقرة : 42 .

لا تجد في زمن من الأزمنة أو مكان من الأمكنة، إلا وقام البعض بخلط الحق بالباطل لسبب أو آخر، أو قام بتعبئة الحق بكثير شبهات، لقليل مكاسب دنيوية ينتظرها، وما ذكر الله عز وجل هذا الأمر وبيّنه في كتابه الكريم، إلا لقيام بعض بني آدم بتلبيس الحق بالباطل في مواقف حياتية متنوعة، أو يكتمه البعض الآخر أو يقوم بتشويهه بعض ثالث.

التلبيس أو اللبس كما جاء في لسان العرب، هو اختلاط الأمر. نقول: لبس عليه الأمر، يلبسه لبساً فالتبس، أي إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته، وإذا قلت: التبس عليه الأمر أي اختلط واشتبه. فالتلبيس لا يختلف عن التدليس. وقد شرح ابن الجوزي – رحمه الله – في كتابه تلبيس إبليس معنى الكلمة، فقال: "التلبيس إظهار الباطل في صورة الحق".

إذن إظهار الباطل على أنه هو الحق، هو عمل كل مدلس أو غارق في التلبيس لأجل مكاسب دنيوية محددة، قد يستمتع بها حيناً من الدهر، لكنه لن يستمر طويلا، ولا ريب في ذلك.

التلبيس قد يكون على يد مشتغلين بالدين، أو مفكرين أو مثقفين أو من على شاكلتهم، كلٌ يعمل في مجاله لتحقيق أهدافه أو أهداف وغايات غيره، والقرآن أشار إلى علماء يهود، كمثال في التلبيس والتدليس، وهم يحاولون إخفاء حقائق الدين الجديد وهو ينتشر بالمدينة المنورة، فكشفهم الله.

جاء في تفسير الطبري في تأويل الآية الكريمة (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) أي لا تخلطوا على الناس – أيها الأحبار من أهل الكتاب – في أمر محمد – ﷺ – وما جاء به من عند ربه، وتزعموا أنه مبعوثٌ إلى بعض أجناس الأمم دون بعض، أو تنافقوا في أمره، وقد علمتم أنه مبعوث إلى جميعكم وجميع الأمم غيركم، فتخلطوا بذلك الصدق بالكذب، وتكتموا به ما تجدونه في كتابكم من نعته وصفته، وأنه رسولي إلى الناس كافة، وأنتم تعلمون أنه رسولي، وأن ما جاء به إليكم فمن عندي، وتعرفون أن من عهدي – الذي أخذت عليكم في كتابكم – الإيمانَ به وبما جاء به والتصديقَ به.

أحبار أو علماء اليهود، هم أكثر من تحدث عنهم القرآن في قصص متنوعة، ليبين لنا كيف كان صنيعهم مع أنبياء الله والناس في تلبيس الحق بالباطل، وأنهم لن يكونوا في قادم الأيام وحدهم في ميدان التلبيس والتدليس، حيث سيأتي زمان ترى في كل الأمم نماذج تتفنن في تلبيس الحق بالباطل، وتغليف الباطل الحاكم بأغلفة مزينة يبهرون بها العامة، إرضاء لنزوات ورغبات ساداتهم وزعمائهم، نظير متاع دنيوي فان لا محالة.

لا يهمنا أحد من أولئك المدلسين من الأمم الأخرى، فلهم دينهم ولنا دين، يكفي أن نتأمل القرآن وهو يتحدث عنهم، لنتعظ ونتعلم مآلات الانغماس في التلبيس والتدليس، ذلك أن ما يحدث في السنوات العشر الأخيرة في عالمنا العربي المسلم، هو ظهور العشرات، بل ربما المئات من المدلسين، على شكل علماء دين أو – إن صح التعبير – مشتغلين بالدين، ومثلهم كثير على شكل نخب مثقفة أو مفكرة وغيرهم، وقد ألبسوا على الناس دينهم ومبادئهم وقيمهم، وبثوا في نفوسهم كثير شكوك، وكانوا من أسباب الاضطرابات الفكرية والدينية عند كثير من العامة.

لاحظ بنفسك حين تقع أي مواجهة بين الحق والباطل، على شكل مواجهات عسكرية أم فكرية أم ثقافية أو ما شابه، ظهور بعض من يعتبرون أنفسهم رموزاً مجتمعية، وقد ساروا عكس معتقدات ومبادئ وقيم الغالبية العظمى في المجتمع، كأنما يريدون الأضواء في تلكم المواقع والمواجهات، وإن كانت على حساب الحق، أو أن هناك ما يدفعهم دفعاً لذلك المسلك، والذي غالباً يجانب الحق والصواب.

إن مجتمعاتنا العاطفية ربما تكون سبباً رئيسياً في ظهور طبقات وفئات المدلسين، الذين يلبسون الحق بالباطل، ننخدع في أشكالهم وهيئاتهم حيناً من الزمن كما قال تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم). ننخدع بجمال ووسامة صورهم، وفصاحة ألسنتهم، وتأثيرهم على السامعين – هكذا يصفهم القرآن – وهم في حقيقة الأمر، أشبه بالبراميل الفارغة، أصواتها أعلى مما في أجوافها، أو بالتعريف القرآني لهم (كأنهم خُشب مسنّدة) أي قطع أخشاب مفرغة من الداخل متآكلة، مسنودة إلى بعضها البعض، لا حياة فيها، كما هم هؤلاء المدلسون أو المنافقون، الذين يستندون إلى إظهار الإيمان لناس، حماية لأنفسهم وتغطية ما في أجوافهم من علم لا ينفع، وأهواء لا تتوافق مع الحق وأهله.

قال ابن عباس – رضي الله عنهما-: كان عبد الله بن أُبَي (رأس وزعيم المنافقين بالمدينة) وسيماً جسيماً صحيحاً صبيحاً ذلق اللسان. فإذا قال، سمع النبي – ﷺ – مقالته. وصفه الله بتمام الصورة وحسن الإبانة. لكنه كان رأس النفاق في المدينة، شديد التأثير في الحالة المعنوية للمسلمين، وصاحب مهارة في تفريق الصفوف، وقد نجح مرات عديدة في خلخلة المجتمع المسلم الناشئ يومها، لكن استمرار نزول الوحي ووجود النبي الكريم، وتعاضد الصحابة مع بعضهم البعض خشية الوقوع في حبائله وفتنه، حافظ على تماسك النسبة الأكبر من مجتمع المدينة.

لقد ظهرت لنا الحكمة من نزول سورة كاملة في القرآن تصفهم وتبين دواخلهم وطبائعهم، حتى يكون المجتمع المسلم في كل زمان ومكان على بينة من أمر هذه الفئة التي لا تندثر، بل هي مستمرة باستمرار الحق في صراعه مع الباطل، الذي وإن تعاظم وتجبّر وتعملق هنا أو هناك، في هذا الزمن أو أزمان قادمة، إلا أنه منهزم هالك لا ريب في ذلك (وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقًا) فتلك هي قوانين ونواميس الكون لا تتبدل (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلًا) .